حلمى يسن

«فى القرية، جمعت كل ما أمتلك حتى أوفر نفقات زواج أختى، وفيما أنا عائد إلى القاهرة سمعت أن عدداً من رفاقى قبض عليهم فقررت اقتسام المبلغ، النصف لأسر الرفاق المعتقلين والنصف للعروسة».

حلمى يسن

(فى حوار معه)

هو واحد من أبناء الأكابر ليس فى قريته «أبو صير الملق» وحدها وإنما فى كل مديرية بنى سويف. والده كان واحداً من الأعيان، أو بالدقة كبار الأعيان، وفى ذلك الزمان كان كبار الأعيان يتم استدعاؤهم مرتين فى العام إلى قصر عابدين لحضور التشريفة الملكية ومصافحة مولانا جلالة الملك. (يوم عيد ميلاده ويوم عيد جلوسه). الأب المفعم بروح الأكابر اصطحب ابنه الطفل حلمى لحضور التشريفة فى سابقة لم تحدث من قبل. رجال تشريفات القصر حاولوا إبعاد الطفل فثار كل أكابر بنى سويف وصمموا – من أجل عيون كبيرهم – على حضور الابن. وقد كان، الجد كان شديد الثراء ثم تفرقت ثروته على تسعة أبناء، ووالده نال نصيبا كبيرا من الثروة والأرض. وعاش هو والأسرة عيشة مترفة. كان الوالد مثقفا ومتحررا والأم التى كانت طالبة بالمدرسة السنية كانت أيضا تهوى القراءة، ومع اشتعال ثورة ١٩١٩ كان الأب والأعمام فى المقدمة، وكانوا جميعا وفديين وبرز منهم واحد من أشهر الأسماء الوفدية التى اندفعت وبلا حدود فى الولاء للوفد وللنحاس باشا وهو الأستاذ حسن يسن.

والطفل حلمى يرضع السياسة منذ البداية، وعندما تعلم القراءة كان هو ومجموعة من الأطفال يقفون على مشارف القرية انتظارا للبوسطجى الطواف الذى يأتى حاملا لفافتين لجريدتين اشترك فيهما الأب وكانتا المنبع الوحيد للتعرف على التطورات السياسية فى قرية لا تصلها إلا هاتان النسختان (كوكب الشرق والجهاد)، وعندما يتسلم حلمى

اللفافتين يقف بقامته القصيرة ليقرأ بصوت جهورى مفعم بالحماس أهم المقالات على جمهور يحتشد سريعا من رجال القرية.

وعندما هدأت الثورة وبدأت الانشقاقات فى حزب الوفد كانت المعارك الانتخابية ضارية وكان الأب قائدا فى هذه المعارك التى كثيرا ما كان يستخدم فيها السلاح والعنف، ودوما تنتهى المعركة، إما بفوز المرشح الوفدى وإما بدخول الأب إلى السجن.

وفى انتخابات برلمان الطاغية صدقى تقرر أن يزور الباشا المدير بنفسه هذه القرية المشاكسة ليضمن نجاح مرشح الحكومة. وتحركت الأم، جمعت كل نساء القرية وأحضرن طفلا أسمر اللون وجردنه من ثيابه وبللنه بالماء والطين ومددنه بعرض الطريق الوحيد المؤدى إلى القرية، وما إن اقترب موكب الباشا المدير حتى بدأ الصراخ والعويل حزنا على الغريق المزعوم، لكن المدير الذى ربما اكتشف الملعوب، حاول اختراق حشد النساء وهنا تصدى له الرجال بالحجارة والنبابيت وانتهت المعركة بالقبض على الأب والأم ومعهما عديد من رجال القرية ونسائها.

وفيما كان حلمى يحاول إنجاز تعليمه الثانوى بالقاهرة كانت الأسرة تتهاوى اقتصاديا، رجال الأسرة، وفيهم الأب، أدمنوا المخدرات وبددوا ثروتهم وتبدد معها نفوذهم. وطوال المرحلة الثانوية كان «حلمى» وفديا نشيطا ومتحمسا ومشاركا فى كل المظاهرات التى كان يقودها دوما حسن يسن، زعيم الطلبة الوفديين. وككل شاب وفدى متحمس انضم لفرق القمصان الزرقاء، لكنه شعر بالحزن فى طابور الاستعراض عندما كان د. محمد بلال قائد فرق القمصان يهتف أمام الطابور «شبابنا للملك والوفد» وجماهير الطابور تردد خلفه الهتاف. وفى أعماقه قال حلمى لنفسه: للوفد نعم ولكن للملك لا.

وخلع القميص الأزرق وبقى وفديا متحمسا، وفى عام ١٩٣٦ حصل على شهادة البكالوريا قسم علمى، وفقد الأمل فى استكمال تعليمه؛ فالأب أفلس تماما وكان عليه البحث عن وظيفة ليعول الأسرة، وتوظف فى المعامل المركزية لوزارة الصحة بوظيفة مساعد معمل كيماوى، والراتب خمسة جنيهات.

وإذ تشتعل الحرب العالمية الثانية، التهبت نقاشات لا تنتهى حول من يقف مع من؟ كل من كانوا حوله يؤيدون هتلر وموسولينى ضد الاحتلال الإنجليزى، أما هو، ولا يدرى لماذا، فقد وقف ضد النازى وساند الحلفاء وخاض فى ذلك معارك كلامية لا تنتهى، وفى غمار

النقاش المحتدم دعاه أحد أقاربه إلى ندوة تناقش ذات الموضوع. وفى ٥ شارع عدلى خطا حلمى يسن أولى خطواته نحو وعى جديد ومستقبل جديد ونحو مصير أبدى.

***

«لعل عبد الناصر قد تصور أن وجود ضباط كبار على منصة القضاء سوف يرهبنا لكنه فوجئ بنا ونحن أشد ضراوة، ونعلن بوضوح وإصرار أننا أعضاء فى الحزب الشيوعى».

حلمى يسن

(فى حوارى معه)

الآن الفتى يخطو نحو إشراقة الشمس، ففى ٥ شارع عدلى كان مقر «جماعة الدراسات» تلك الجماعة التى تشكلت كبديل لاتحاد أنصار السلام، وهناك التقى بعديد من الشخصيات الملهمة كان هناك بول جاكو ويوسف درويش وصادق سعد وريمون دويك وعبد العزيز فهمى ومحمد إسماعيل، ومع تراكم الندوات والمحاضرات كان الضوء يتراكم والفتى يقترب أكثر فأكثر من وعى جديد، وإذ يتزايد عدد المصريين فى «جماعة الدراسات» يجرى تجميعهم فى جماعة جديدة «جماعة الشباب للثقافة الشعبية»، وهناك تابع محاضرات من نوع جديد، فالمحاضرون الشيخ أمين الخولى الذى حدثهم عن فهم مستنير للإسلام وإلى بنت الشاطئ وعبد الحميد الحديدى، وكانت العيون اليقظة تتابعه واكتشفت إصراره ووعيه فقرروا منحه جرعة تدريب ودعوه إلى أن يقرأ دراسة مترجمة عن خزان أسوان ثم يستعرضها أمام المجتمعين، وخطوة أخرى نحو الاقتراب من الفلاحين والعمال وكانت مدرسة محو الأمية فى قرية ميت عقبة وأخرى فى بولاق للعمال مجالا لبداية نشاطه، ومع محو الأمية، كانت محاضرات مبسطة عن التاريخ والثقافة العامة، والفتى الملتهب حماسا ازداد حماسا، ينتهى من عمله فى المعامل المركزية لوزارة الصحة فينطلق إلى الترامواى ليركب حتى نهاية الخط حيث مكان مسرح البالون الحالى، ثم سيرا على الأقدام لعدة كيلومترات حيث الفلاحين تلاميذه فى فصل محو الأمية فى ميت عقبة.

وعندما صدرت مجلة «الفجر الجديد» كلف أن يتسلم عددا من النسخ ليقوم ببيعها، فكان الأكثر قدرة على البيع، ثم أسهم فى تحريرها بعديد من التعليقات وقعها باسم

«محيى» أحيانا، وأحيانا أخرى باسم «حمادة»، ويأتى يوليو ١٩٤٦ وتأتى معه أكبر حملة بوليسية ضد القوى الاشتراكية والتقدمية وكل الليبراليين واليساريين المصريين، ورأينا كيف دفع حلمى نصف ما خصصه لزواج أخته لأسر السجناء وترك النصف الآخر للعروسة.

وفى سبتمبر ١٩٤٦ اتصلت به زوجة ريمون دويك وأبلغته بموعد سيلتقى فيه مع شخص فى ميدان الإسماعيلية «التحرير»، هناك وجد صادق سعد، سارا معا وبهدوء قال صادق: «أود أن أبلغك قرارا مهما»، وأرهف حلمى السمع.. وإذا بالقرار أنه تقرر منحه العضوية، صاح حلمى: «يا نهار اسود أمال أنا كنت إيه طوال الست سنوات الماضية»، وأجاب صادق بذات الهدوء «كنت مرشحا»، وهكذا وبعد ست سنوات من نضال ساخن أصبح حلمى عضوا فى خلية لتنظيم «طليعة العمال» وكان معه فى الخلية عبد العزيز فهمى ومحمد إسماعيل وسائق أتوبيس اسمه عم محمد. وفى الاجتماع الأول ألقت الخلية على عاتقه مهام كثيرة مثل أن يعمل على إنشاء رابطة لمساعدى المعامل بوزارة الصحة.. العمل على إنشاء ناد رياضى بحى الخليفة.. الانضمام إلى لجنة حزب الوفد بحى الخليفة، وأيضاً جمع توقيعات للمطالبة بانتخابات حرة تجريها حكومة محايدة.. وكذلك الاشتراك فى توزيع المنشورات السرية الحزبية.

ولعل هذه المهام توضح بذاتها مسارات عمل هذا التنظيم، وكانت دراسة الماركسية منتظمة فى اجتماعات الخلية.

وذات يوم حددوا له موعدا فى سرية تامة ليجد نفسه فى شقة بشارع الشيخ ريحان، إنه مؤتمر مدينة القاهرة، كان المندوبون ١٢ وجرى انتخابه مسئولا للقسم ثم تم تصعيده إلى لجنة منطقة القاهرة، وفى عام ١٩٤٨ تعلن الأحكام العرفية ويقبض على عدد كبير من الرفاق ويتم تصعيده إلى اللجنة المركزية، وفى عام ١٩٤٩ وفيما كان قد استقر وظيفيا وأصبح مساعدا للمدير العام للمعامل المركزية وزاد راتبه إلى ١٥ جنيها، استدعى لمقابلة مسئول وتم ترتيب اللقاء بحرص شديد وهناك التقى بأبو سيف يوسف الذى سأله بهدوء: «هل أنت مستعد للاحتراف؟» وبلا تردد خرجت نعم من فمه مفعمة بالحماس، وبعد يومين استقال من الوظيفة ووهب نفسه كلية للنضال، وكان راتبه كمحترف ستة جنيهات، وبعد فترة قبض عليه وأفرج عنه ثم قبض عليه ليفرج عنه، وأصدر له التنظيم قرارا بالاختفاء

والسفر للإسكندرية، الاختفاء هنا له مذاق خاص، أن تبحث عن عمل لنصف الوقت يكون غطاء وتعتمد على دخله فى المعيشة ولا تكلف التنظيم شيئا، وعمل كمدرس خصوصى، ثم توجه إلى المحلة ليعمل ممرضا فى عيادة للأمراض الصدرية.

ويأتى يناير ١٩٥٩ ليكون ضمن المقبوض عليهم ويقف أمام قضاة المجلس العسكرى العالى معلنا: «أنا أعتز وأتشرف بأن أعلن أننى عضو فى الحزب الشيوعى المصرى»، ويحكم عليه بالأشغال الشاقة ثمانى سنوات نال فيها من التعذيب الوحشى ما ناله كل الرفاق.. ويبقى حتى أبريل ١٩٦٤ حيث يفرج عن الجميع.

ومع أول شعاع لمنبر اليسار كان حلمى يسن معنا وظل معنا حتى الآن.

وتلقيت رسالة خطية منه يحكى فيها بعض ما فاته أثناء حوارى معه اختتمها قائلا: «إن هذا التاريخ أذكره بكل احترام واعتزاز وفخر وأعتبر أننى أديت بما فعلته بعضا من دين للوطن والشعب والعقيدة التى جعلت منى إنسانا آخر».

وأنت تستحق يا رفيقنا العزيز المزيد من الفخر.